إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثانية – العدد الثامن – شتاء ١٣٩١ش/كانون الأول ٢٠١٢م
صص ٣٣ ـ ٥٤

الحريّة الروحيّة فى منظر ميخائيل نعيمه وطرق الوصول إليها

سردار اصلانی*
افسانه خواجه گودری**

الملخص
الحريّة من أجمل الكلمات فى القاموس البشرىّ وهى بمعنى القدرة على التصرّف بملء الإرادة والاختيار مع صيانة حقوق الناس فى الغرب، وإضافة إلى هذه تضاف حقوق الله والناس فى الإســلام أيضا.والحريّة ضربان: الأول منهما الحريّة الاجتماعيّة، هى أن يكون الإنسان حرّا فى تصرفاته الفرديّة والاجتماعية؛ أى لم يكن الآخرون مانعين فى ســيره نحو نموّه وأهدافه عن طريق حَبســه وإجباره أو استثماره أو استخدامه فى الأمــور. أما الثانى منهما فالحريّة الروحيّة؛ فمعناها يرجع إلى نفس الإنســان بحيث أن تكون نفســه حرّة من كل القيود الســلبية الرادعة. وهناک صلة وثيقة بين الحريّة الروحيّة والحريّة الاجتماعيّة. وعندما يصل الإنســان إلــى الحريّة الروحيّة فحينئذ ستحقق له الحريّة الاجتماعيّة. فى المقال هذا، ندرس آراء نعيمه حول الحريّة المثاليّة والطُرق التى سَــلْكها تهدى الإنســان المفتّــش عن الحريّة إليهــا فى آثاره فى المنهج الوصفى ـ التحليلى. ونحاول أن نبيّن عوائق الوصول إليها أيضا. والهدف الرئيس لهذه الدراسة كيفية اقتراح نعيمه للوصول إلى الحريّة.

الكلمــات الدليلية: ميخائيــل نعيمه، الحريّة الروحيّة، المعرفــة، الإيمان، الرذائل الأخلاقية.

---

*. جامعة إصفهان، إيران. (أستاذ مساعد). Aslani@fgmui.ac.ir
**. جامعة إصفهان، إيران. (خريجة مرحلة الماجستير).
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. حسن شوندى
تاريخ الوصول: ١٣٩١/١٠/٩هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٩١/١١/١هـ. ش

المقدمة

نرى فى رؤية الأدباء والعلماء والفلاسفة تقديم الحريّة بشتّى الطُرق. قد ظهر نعيمه فى العصر الذى يملأ جوّه بالدعوة إلى الحريّة، فطبيعىّ أن نراها عنده أيضا.

والحريّة هى الهدف الأسمى التى تهدفها الكائنات كلّها وفى رأسها الإنسان. وهو يستطيع الوصول إليها عن طريق الوصول إلى معرفة الإنسان نفسه، بحيث توصله إلى معرفة الله، وهذه المعرفة هى الإيمان بعينه، فالمعرفة والإيمان أهمّ طُرق الوصول إلى الحريّة الروحيّة.

نتحدّث فى المقال هذا بعد إشارة عابرة إلى حياة نعيمه وعزلته وآثاره مع الاهتمام بمنزلته السامية، عن أسس الحريّة عنده للوصول إلى هذا المهّم وروادع الوصول إليها. فالمعرفة من أهمّ الطرق فى سبيل الحريّة الروحيّة؛ لأنّه عندما يعرف الإنسان نفسه يحررّها من كلّ القيود. وأمّا الإيمان فهو من أهمّ طرق الوصول إليها أيضا. فنرى عندما يصل الإنسان إلى الإيمان الحقيقى فهو سيحرّر من قيد سائر العبوديّات. بعد ما سبق من القول، فإن هدفنا من اختيار هذا الموضوع هو تعريف الحرية الروحيّة من منظار نعيمه وسُبل الوصول إليها وعلى إثرها مساعدة المجتمع الإنسانى فى معرفة الأزمات الفكرية والاجتماعية، ومساعدتهم للوصول إلى الحريّة الروحيّة، لأنّها مقدمة للحريّة الاجتماعية. والمحور الأساس لهذا المقال هو معرفة رؤية نعيمه عن الحريّة وأساسها عنده واكتشاف طرق الوصول إليها.

خلفيّة البحث

الحرية الروحية من أهمّ الموضوعات التى قد بحثت مرّات كثيرة. فقد دُرست آثار ميخائيل نعيمه فى بعض المواضيع، وطبعت مقالات حول أدبه؛ منها: أطروحة "صلة الأدب بالأخلاق فى آثار ميخائيل نعيمه" لعلى أحمدى نوقشت فى جامعة أصفهان بإشراف الدكتور سردار اصلانى. كما كتبت المقالات الكثيرة حول هذا الأديب وأدبه منها: «آراء ميخائيل نعيمه النقدية» لـ «حسن دادخواه، وسكينه پرهيزگارى»، "فى غربال ميخائيل نعيمه" لـ "حبيب زحلاوى"، و"مقارنة أدبية بين "العقاد" وديوانه و"ميخائيل نعيمه" و"غرباله" تأليف "قاسم مختارى، ومريم بخشنده" و"ميخائيل نعيمه

منهجــه فى النقد واتجاهه فى الأدب" لـ "بــدوى طبانه"، وأما عن الموضوع هذا فلم نعثر على بحث أو كتاب.

نبذة عن حياة ميخائيل نعيمه وآثاره الأدبية

أطــلّ ميخائيل نعيمه علــى هذا العالم فى ســنة ١٨٨٩م فى قرية بســكنتا فى لبنان. قام منذ طفولته بكســب اللغة والأدب والعلم فى شــتى الفروع. له صلة وثيقة «بنســيب عريضه» فى رأس مجلّة «الفنون» فراح نعيمه ينشر مقالات فيها، وعندئذ مال إلى جمعيّة «التيوصوفية» الفكرية الفلســفية واســتخدم هذه الآراء فى التقمــص، وميزان الثواب والعقاب والخير والشرّ. وفى سنة ١٩٢٠م أنشئت الرابطة القلمية التى من أهدافها الثورة على الجمود والتقليد والدعوة إلى الإبداع، وفى رأسها «جبران خليل جبران»، وانتخب نعيمه مستشارا لها. ويقول نعيمه فى مقدمة قانون هذه الرابطة: «إن هذه الروح الجديدة التى ترمى الخروج بأدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الإبتكار فى جميل الأساليب والمعانى، الحريّة فى نظرنا بكل تنشــيط ومؤازرة، فهى أمل اليوم وركن الغد.» (خفاجى، ١٩٨٦م: ٣٩١) بعد هذه النشاطات الأدبية، اختار لنفسه صومعة فى «الشخروب» لبعده عن فوضى المدنيات. قصــده من هذه العزلة على حدّ تعبيره: «التأمّل، وغربلة الماضى، وتعريــة النفس، وفتح كوى الروح لنور اللّه.» (نعيمه، ج٢، ١٩٧١م: ٤٩) فهدفه من هذه العزلة سوى ما قاله نفسه هو التفكير فى حقائق الكون وتزكية النفس ومعرفة اللّه تعالى وهذه كلّها ما قرّبه إلى الحريّة الفردية، فلاشكّ فى أنّه رجل حرّ. وفى إثبات هذا الكلام، جدير أن نشــير إلى شــخصيته بأنّه يكــره الدنيا وظواهرها كالمال، كما يكره الحســد والبغض والطمع وغيرها من الصفات الرذيلة التى تعرقل وصول الإنسان إلى الحريّة.

وأمــا حياة نعيمه فى مجــال الأدب فهى حياة مثمرة قيمّة. له أكثر من ثلاثين مؤلفا فى شــتى فروع الأدب منها القصّة والمسرحية والأمثال والمراسلة والمقالات الأدبية والنقد الأدبى والنقد الاجتماعى الذى نراها فى ما كتبه:

١. فى فنّ المقالة: زاد المعاد (١٩٣٦م) والبيادر (١٩٤٥م) والأوثان (١٩٤٦م) وصوت العالم (١٩٤٨م) والنّور والدّيجور (١٩٥٠م) وفى مهبّ الرّيح (١٩٥٣م) ودروب (١٩٣٢م) وأبعد من موسكو ومن واشنطن (١٩٧٥م) والمراحل (١٩٣٢م) ومقالات متفرّقة.

٢. فى فـنّ القصص: أكابـر (١٩٥٦م) ومذكّرات الأرقش (١٠٤٩م) ولقاء (١٩٤٦م) ومِـرداد (١٩٥٢م) واليـوم الأخـير (١٩٦٣م) ويـا ابـن آدم (١٩٦٩م) وكان ما كان (١٩٢٧م) وأبوبطّة (١٩٥٨م) وهوامش (١٩٦٥م).

٣. فى فنّ المسرحيّة: الآباء والبنون (١٩١٧م) وأيّوب (١٩٦٧م).

٤. فى فنّ النّقد: الغربال (١٩٢٣م) وفى الغربال الجديد (١٩٧٣م).

٥. فى فـنّ السّـيرة والتاريخ: جـبران خليل جبران (١٩٣٤م) وسـبعون (فى ثلاث مجلّدات) (١٩٧٩م).

٦. فى فنّ المثل: كرم على درب (١٩٤٦م).

٧. فى فنّ المراسلة: رسائل (١٩٧٤م).

٨. فى فنّ الشعر: همس الجفون (١٩٤٥م).

٩. فى فنّ التأمّل: من وحى المسيح (١٩٧٤م).

وقد عُنيت دار العلم للملايين فى بيروت بنشـر «المجموعة الكاملة» لآثار ميخائيل نعيمـه ما بين (١٩٧٩م) و(١٩٨١م) فى تسـعة مجلّدات ضخمـة. (الفاخورى، ١٩٨٦م: ٣٧١)

الحريّة الروحيّة عند ميخائيل نعيمه

بسـبب اغتراب الأدباء المهجريين وحنينهم واتّصال روحيّتهم الشرقية بمادية الغرب أثر كبير فيما يؤدى إلى القلق الروحى والحيرة النفسية فى نفوسهم، فهذا الأمر دفعهم إلى شتى الفنون: الحرية، الحنين إلى الوطن، الفخر بالشرق والعرب، والتغنى بالله والإنسان، ومعالجة الحياة والموت ووصف الطبيعة، والتسـاؤل والتأمل، والحزن والألم. (خفاجى، ١٩٨٦م: ٣١٤ـ٣١٠)

وأمـا الحرية فميخائيل نعيمه كثيرا ما يهتمّ بالحريّة الروحيّة فى آثاره الأدبيّة، وقليلا ما يهتم بالحريّة الاجتماعيّة. ومحور حريّته هو الإنسان، إنه يستطيع أن يكون حرّا وإن يكن فى سـجن خلف الحصون المنيعة. «من أهمّ أهداف الأنبياء هو الحريّة الروحيّة أو بتعبـير آخر تهذيب النفس أى الحريّة الروحيّة» أيضا (مطهرى، ١٣٨٤ش: ٤٠)، من ثمّ

الحريّة التى يهدفها نعيمه حريّة قيّمة سماويّة. إنه أديب رسالى، ورسالته نحو الفضائل الأخلاقية السامية كالحريّة والمعرفة والإيمان ونفى الأخلاق السّيئة. فيعتبر الحريّة الهدف الأفضل للإنسان؛ لأنّه يولد حرّا ليعيش حرّا، كما يقول: «الإنسان للحياة لا للموت. وللمعرفة لا للجهل. وللحريّة لا للعبوديّة.» (نعيمه، مذكرات الأرقش، ١٩٧١م: ٧٦) ففى رأيه الحريّة أولى من العبوديّة وهذه فكرة متجاوبة مع الإسلام وروّاده. ويقول نعيمه فى هذا المجال: «ما ولد الإنسان ليكون رقيقا. وهو أبدا يحلم بالانعتاق من كلّ أنواع الرقّ. وستكون الحريّة نصيبه فى النهاية.» (نعيمه، ١٩٧٥م: ١٨٣)

الحريّة التى يرسمها لنا نعيمه لاتوجد فى دساتير الدول، بل مأوى هذه الحريّة هو قلب الإنسان؛ «وإن الحريّة ليست فى تحطيم حكم وتركيز حكم. بل فى بناء قلب الإنسان وفكره ووجدانه وإرادته بناء لامجال فيه للظلم والاستبداد والاستعباد. فالمجتمع الصالح لايقوم إلا بأفراد صالحين. مثلما لايقوم البناء الجميل إلا بحجارة جميلة. والعدل والحرية لاينبعان من القانون، بل من القلب والفكر اللذين هما مصدر كلّ خير وشـّر. فمن شاء أن يبنى للإنسان عالما يسوده العدل وتظلّله الحريّة عليه أن يبنيه أوّلا وآخرا فى قلب الإنسان وفكره.» (نعيمه، دُروب ١٩٧١م: ٥٢ـ٥١) فليس فى اختيار أى قانون أو دولة أو حكم أن يحدّد الحريّة بل اختيار هذا التحديد بيد القلب وصفاء روحه وخلوصه وعدالته. كما يقول: «علّمتنى الحريّة أن أطلبها فى روحى لاضمن سياجات الناس. وأفهمتنى أن أفقر الناس أكثرهم سياجات وأشدّهم عبوديّة مَن ظنّ أن فى وسعه أن يستعبد سِواه وأضعف الممالک أوفرها جنودا وأضخمها أساطيل. وأذلّ الأمم أمّة تتوهّم أن فى طاقة أمّة أخرى أن تسلبها أو أن تهبها الحريّة.» (نعيمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ٢٦) فالحريّة التى يعتقد بها بعيدة عن القيود والحدود من ثم تختلف حريّته عن الحريّة التى يحتاج إليها المجتمع الإنسانى وهى تشمل بعض الحدود والقيود. أمّا نعيمه فاعتقد بالحريّة المطلقة التى نستطيع أن نقول ستحقق فى عالم الخيال لا فى عالم الواقع، فحريّة نعيمه حريّة مثاليّة فى عالم الخيال لا عالم الواقع.

وهكذا خلق الإنسان مختارا حرا فى أدب نعيمه، بمعنى «أنه أعطى فكرا وإرادة. فليس الإنسان فى أعماله كالحجر تدحرجه فيتدحرج ويسقط متأثرا بجاذبية الأرض

دون أن تكون له أية إرادة، أو كالنبات ليس له إلا طريق واحد فبمجرد توافر شـروط معينـة ينمو بالشـكل المعتاد. أو كالحيـوان الذی يؤدی أعماله بتأثـير غريزی، كلّا إن الإنسـان يجد نفسـه دائما علی مفترق طرق ليختار منها أيها شـاء بملء حريته ووفق مشـيئة ونوعية تفكيره وليس مجبورا علی سـلوك أحدها لاغير وإنما الذی يعين أحد الطرق هو أسلوب فكره واختياره.» (المطهری، ١٤٠٤ق: ٥٧)

طرق الوصول إلی الحريّة الروحية فی أدب نعيمه

الف) المعرفة

من الأهداف السامية التی يطلبها الإنسان هی الوصول إلی قمّة الحريّة، ولها طريق وهی "المعرفة" كما يری نعيمه: «أن الحريّة لاتكون إلا بالمعرفة.» (نعيمه، النور والديجور، ١٩٧٣م: ٤١) فعندما يعرف الإنسـان كلّ شیء فهو يكون سيّد ما يعرفه فعندئذٍ هو حرّ ولايحتاج إلی معرفة شـیء، كما صرّح نفسـه "أنا طالب معرفة" فواضح أنّه يطلب من وراء هذه المعرفة الحريّة. لاحظنا خلال سـيرنا فی آثار نعيمه، إنه يحارب نفسـه محاربة للوصول إلی المعرفة والحقيقة.

يعتبر نعيمه غاية عمر الإنسان هو الوصول إلی ذروة المعرفة. التی «لاتنال فی مدرسة أو مدارس. ولا فی فسحة معلومة من العمر. لا ولا فی عمر واحد. بل نحن نلتقطها ـإذا عرفنـا كيف نلتقطها ـ فی كلّ لحظة من وجودنا ـ فی اليقظة والمنام، فی الوطن والغربة، فی الحياة والموت.» (نعيمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ٤٧)

معرفة النفس أسـاس للمعـارف الأخری؛ لايزال يدعو نعيمه إلی محاسـبة النفس وتطهيرهـا، وهـی من أهم الطرق التی اتّخذها للغلبة علـی موانع الحياة وغربلة ماضيه وزواله الشـهوات والرذائل. عندما يسيطر الإنسان علی نفسه يستطيع أن يعرفها معرفة كاملة وعندئذ تفتح له أبواب معرفة هذا العالم وخالقه. يبدأ كل شـیء بنفس الإنسـان. عندما يعرف الإنسـان نفسـه سيجد فيها كلّ شیء، وكلّ إنسـان. عندما يفوز الإنسان بالخوض فی خفايا نفسـه يجد مفتاح أزماته فی عالمه الخارجیّ. يقول سـقراط: "اعرف نفسـك"؛ فيذهب نعيمه عندما الإنسان يسأل نفسـه "مَن أنا؟"، فی الحقيقة، جوابه علی

هذا السؤال تقدمة لمعرفة القصوی أو بتعبیر آخر هو معرفة الکون.

وستحقق معرفة "أنا" بالغوض فی التفکیر والتأمّل العمیق. یری هذا الأدیب عمر الإنسان فرصة لِکسب المعرفة التی تؤدی إلی الثروة والمجد والعزّة. وإن عزّة نفسه لتأبی علیه أن یکون نکرة. فَویل ألف ویل علی النفس التی تکون نکرة غیر معرفة. بین الحریّة والمعرفة صلة وثیقة بحیث عندما یسلک الإنسان طریق المعرفة ففی النهایة یصل إلی الحریّة، وعندما یقطع الإنسان طریق الحریّة فیستطیع الوصول إلی المعرفة، فالحریّة والمعرفة رفیقان متلازمان، «المعرفة هی الطریق المؤدی إلی الحریّة. فحیث لامعرفة لاحریّة وحیث لاحریّة لامعرفة» (نعیمه، فی مهب الریح، ۱۹۷۲م: ۷۳ـ۷۲)، إذ مبدأ الحریّة هو المعرفة والمعرفة الکاملة هی عین الحریّة. إنه یعتقد: «المعرفة وحدها المعرفة الشاملة، الکاملة هی الحریّة. والحریّة وحدها هی المعرفة. أما بعض المعرفة وبعض الحریّة فضرب من العبودیّة الغنیّة أبدا بالأزمات والمشکلات والنزعات ومختلف صنوف الویلات. والحریّة منها براء.» (نعیمه، الیوم الأخیر، ۱۹۷۲م: ۱۳۲ـ۱۳۱)

إنه یقترح لکسب المعرفة طریقین: أحدهما طویل ومتعرّج وشائک جدّا. ولکنّ فی منعطفاته وبین أشواکه من یدفع المناظر والریاحین ما بدفع السائر فیه علی السیّر أبعد فأبعد. فلاینتهی إلی المعرفة. بل ینتهی إلی الموت. ذلکما هو طریق معرفة الخیر والشـر. إنّه طریق مسدود. إلا أنّه، بالنتیجة، یؤدّی إلی المعرفة عندما یقنط منه السائر فیه فیعود یفتّش عن الطریق الآخر. وأنا أحذّرکما منه لأنکما، إن سلکتماه، فسیکون اتکالکما علی نفسیکما لا علیّ. أمّا الطریق الثانی فأقصر من الأوّل بکثیر. ولیس فیه من المغریات مثل ما فی الأوّل. والذی یسلکه لایتّکل علی نفسه بل علیّ. لذلک کان سلوکه أشقّ من سلوک الأوّل. لأنّه ینطوی علی التنازل عن "أنا" الموهومة التی علی هدیها یسیر سالک الطریق الأوّل فلایزداد ضلال فوق ضلال. وإنی لأعلم أنکما ستختارون الطریق الأوّل؛ لأنّه یبدو أکثر إغراء من الثانی بما یثیره من اعتزاز فی نفسیکما باستقلال ذاتکما عن ذاتی وباتکالکما علی نفسیکما لاعلیّ.» (نعیمه، یا ابن آدم، ۱۹۷۳م: ۱۷۵ـ۱۷٤)

فی رأی نعیمه، عندما یتعلم الإنسان کیف یعاشر الناس ویعیش معهم دون أیّة هواجس فعندئذ یکشف له أوّل الطریق إلی المعرفة.

إنه يرى عندما يخضع الإنسان للمعرفة ويستسلم لها فهذا الخضوع دالٌّ على حريّته وعدم عبوديّته. وعندما يصل إلى المعرفة والفهم فعندئذ يشعر بالحريّة القيّمة التى تكون «ثمــرة نادرة تنبت على شــجره نادرة تدعى الفهم.» (نعيمه، كــرم على درب، ١٩٧٢م: ١٠٤) كلّ من ســار على الدرب وصل، فلانجد صَرح الحريّة دون المعرفة، ولانجد صرح المعرفة خالٍ من الحريّة. نعيمه يحبّ نفســه حبّــا كثيرا لأنّه يحبّ الحياة وفى رأيه لاقيمة للحيــاة إلا بما تشــتمل من الطموح إلــى المعرفة والحريّة والخير والعــدل والجمال. إذ الحريّــة هذه تعطى الحياة معنى. فالحياة دونها هى ســجن مظلــم. «أن الحكيم لايعرف للحيــاة غير معنىً واحد. وذلک معنى الحريّة. فحيــث لاحريّة لاحياة. وكلّ ما يحدّ من حريّة الحكيم هو موت له.» (نعيمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٨٠) فالإنسان لايزال يبحث عــن حيــاة بعيدة عن الحرب، فلهذه الحياة طريق وهى الحريّــة، وفى رأيه، الحريّة روح الحياة، فالحياة بغير الحريّة كالجســد دون الروح: «أنّنا لانفکّ نتشدّق بالحريّة وبالسلم إذ نحن نقيّد الإنســان بالسلاســل فندفعه دفعا على الحرب. لأنّ الإنسان لايتعشّق شيئا تعشُّقه للحياة. والحياة بغير حريّة كالجسد بغير روح.» (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ١٤٨)

يجــب على الذى يهدف الحريّــة أن تكون له إرادة الحــرّ؛ لأن الإرادة التى لم تكن الحرّ وقد تكون فى قيد الشــهوات والأهواء؛ ولاتســتطيع أن تهدف الحريّة وتصل إليها، «لاتكون الحريّة بغير إرادة الحرّ.» (نعيمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٨٤) الإنسان ذو عقل وشعور فهو يستطيع عن طريق هذا السلاح الحاد اختيار أفضل الطريق من الطرق التى تجعل أمامه فى سبيل كماله وحياته المثلى.

الحريّة أفضل الآمال وأسمى الطموحات التى يتمنّى بها الإنسان، مَن يتذوّق الحريّة يوما يتذوّق الألوهة. «والألوهة تعنى معرفة كلّ شــىء والقدرة على كلّ شىء» (نعيمه، النور والديجور، ١٩٧٣م: ٩٩)، فعندما يجد الإنسان طريقه إلى النفس يجد طريقه إلى اللّه أيضا. فمعرفة النفس تؤدى إلى معرفة اللّه. الذى يملک على نفسه جدير بتاج الحريّة التى من ثمرتها الطمأنية والهدوء. وهكذا الاعتقاد باللّه لايبعد الحريّة عن الإنســان بل يرتقى روح الحريّة فى الإنسان، فى الحقيقة، عندما يكون الإنسان حرّا يستطيع اختيار اللّه وهذا الاعتقاد والاختيار يُســاوى الحريّة دون أىّ جبر. يقول نعيمه: «غاية [الإنســان] من

وجوده معرفة نفســه. ومعرفته لنفسه تعنی معرفته الله. ومعرفته الله تعنی معرفة کلّ شیء. ومعرفته لکلّ شــیء تعنی القدرة علی کلّ شــیء والإنعتاق من کلّ قید وحدّ.» (نعیمه، صــوت العــالم، ١٩٧٣م: ١٤٤ـ١٤٣) إنه یری معرفة الله فی الإنســان هی نقطة الدائرة مــن الحیاة. عندما یصل الإنســان إلی الحریّة والمعرفة یســتطیع أن ینمو ویتقدّم. وکما أشرنا سابقا؛ هذه الهدف الأعلی فی حیاة الإنسان لاغیر، قال الله تعالی: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَکَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩ـ١٠) کما یعتقد نعیمه: «هدف الإنسانیّة من وجودها هو معرفة کل شــیء والقدرة علی کلّ شــیء» (نعیمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٤١)، فتزکیة النفس وتهذیبها تدفع الإنسان إلی معرفة الله.

وهکذا المعرفة والوعی طریقان إلی الحریة الکاملة فجدیر بالإنسان أن یزیل ضباب الجهل والشک عن آفاق نفسه ویسیر فی سبیل المعرفة المؤدیة إلی الحریّة المثلی.

ب) الإیمان

قطــعُ طریق الحریّة صعب جدّا، فالذی یســلک هذا الطریــق الموحش یحارب فیه الأهواء التی خیَّمت علی قلبه ویساعده فی هذه الحرب سلاح الإیمان لأنّه أقوی من کلّ ســلاح حدیدیّ وأقطع منه، کما یقول نعیمه فی هذا الإطار: «إن ســالک ذلک الطریق لیشعر بأنّه أقوی من الزعازع والزلازل. وهو المحارب الذی لاینام علی الضیم ولاتُفَلّ له عزیمة. أمّا أعداؤه فلیســوا من لحم ودم. إنّهم الشهوات السّود التی تخیّم علی قلبه. فهو، إذ یســعی إلی الحیاة والحریة، لایعتمد فی الدفاع عنهما علی ســلاح من الحدید والنار؛ لأنّــه یعلم أن الحدید یفلّه الحدید، والنار تأکلها النارة ولکنه یتســلّح بالإیمان الذی هو أقــوی من النار وأمضــی من الحدید بما لایُقاس. ومن کان ذلک شــأنه من حیاته کان ثابتــا فی الزمان والمکان وثبوت الحیــاة» (نعیمه، فی مهب الریح، ١٩٧٢م: ٣٢)، فالذی یتســلّح بالحریّــة له قوة لاتصاب بالتغیــیر والزوال. وهذا الإیمان هــو الهبة التی تعطی الإنسان لمحاربته النفس وظلمتها وآماله الکاذبة الواهیة. عقل الإنسان وإرسال الأنبیاء والکتب الســماویة کلّها یدّل علی الاختیار وإرادة الحرّ التی أعطاها الله الإنســانَ کما تدّل هذه الآیة علی هذا المهمّ: ﴿لَوْشآءَ اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَی الهُدی﴾ (الأنعام: ٣٥) فالإیمان

مقدمة الحريّة ودون الإيمان لانرى لونا من الحريّة والذى يكون حرّا لايُصاب بالعبوديّة وبالعكس الذى الذى يعبد ما فى قلبه مِن الأهواء ليس بحرّ.

«إنّ المؤمن يستطيع كلّ شىء، هذا كلام لا وشى فيه ولاتنميق. وهو أبعد ما يكون عن المبالغة. إنّه الحقيقة العارية، السافرة. فالإيمان هو الكنز الذى إذا اكتشفه الإنسان فى قلبه بات فى غنىً عن كنوز الأرض كلّها، وباتت له القدرة على التحكّم بالطبيعة وبجسده الذى هو بعض من الطبيعة.» (نعيمه، من وحى المسيح، ١٩٧٢م: ١٧٨) فكل من يتسلّح قلبه بسلاح الإيمان فهو لايحتاج إلى تعلّقات الدنيا؛ لأنّ هذا القلب المؤمن هو الحرّ فلايحتاج إلى كنوز الأرض، والقلب الذى يشعر بالإيمان لقلب تنهار من حوله الشدائد، ولاينهار بالشدائد. فالإيمان الحىّ النابض هو المعجزة الكبرى التى يوصل الإنسان إلى الحريّة.

أنواع هذا الإيمان عند نعيمه نوعان: الإيمان الأعمى، وهو الإيمان الذى يبعثه الخوف فى نفس المؤمن ويثرثر به اللسان, ولايمسّ شغاف القلب وهو أضعف الإيمان. ولكنّه خير من اللاإيمان. يرى نعيمه أنّ الخوف والإيمان نقيضان اللذان لايجتمعان. أمّا الإيمان المبصر فهو حصيل التأمّل العميق فى بحر الحياة اللامتناهى. ومن شأن مثل ذلک التأمّل أن يبصر قلب الإنسان يفتحه أمام النوايا الطاهرة فتملأه محبة وخير وسخاء وأن يفتح فكره لمعجزاتها فتملأه دهشة. والإيمان الأعمى فى الواقع عدوّ الإيمان ومواهب الإنسان. إنّه إيمان الشفاة دون القلوب. كل إيمان لاتقدم على الوعى والمحبّة هو تخدير للإيمان والإيمان المخدّر هو أشدّ خطرا على الناس من العقل والمخدّر والضمير المخدّر (المصدر نفسه: ١٧٥)، فكثيرا ما يستحسن نعيمه الإيمان المبصر على الإيمان الأعمى لأنه مساعد الإنسان فى سبيل المعرفة إلى الحريّة وهذا الإيمان هو السلاح القوى الذى لم يزل ولايزال مستسلما أمام الدهر.

والزمان الذى يسلّح بالإيمان لايفقد حريّته الروحيّة ولايسيطر عليه أىّ خوف إلّا خوف الله. فالإنسان المؤمن هو الإنسان الحرّ بمعنى الحقيقى للكلمة، «مَن كان أسير الله كان حرّا من غير شک.» (نعيمه، ١٩٧٥م: ٢٢٨) فليس جدير بالإنسان أن يكون عبدا لأحد إلا الله وهى الحريّة نفسهما. وأما المحبّة فهى طريق الوصول إلى هذا الإيمان

عنــد نعيمه؛ كما يقول: «لا الإيمان يقوم بغير المحبّة. ولا المحبّة تقوم بغير الإيمان. فكأنهما التوأمــان المتلاصقان لاحيــاة للواحد إلّا فى حياة الآخر.» (نعيمه، من وحى المســيح، ١٩٧٢م: ١٨٤)

وفى النهاية نشــير إلى الإيمان الذى يدعو إليه نعيمه، فهو غير الرهب والفقر وقبول الذلّة والهوان بل هو القدرة والشــجاعة والكنز الروحى، كما يقول: أمّا "الإيمان" الذى دعــوت إلى اســتعادته والاعتصام به فهو غير الخنوع والاستســلام والخوف والقناعة بالذّل والفقر والمسكنة. إنّه القدرة التى تدرک حدود العقل فتتخطاها إلى حيث تتكشّف الحياة عن ثروات روحيّة أين منها ثروات الذهب الأصفر والأبيض والأسود؟» (نعيمه، ج٢، ١٩٧١م: ٢٠٠)

عوائق الوصول إلى الحريّة

لكل إنســان هدف فى حياته, ولاتخلو الأهداف من الصعوبات والموانع مهما كانت ســهلة، فعندما يقصد الإنسان الحريّة كالهدف الأفضل فى حياته, فهذا الهدف ليس بعيدا عن المشقّات والموانع. إنّنا بعد دراسة آثار نعيمه استخرجنا هذه الموانع فى سبيل الحريّة وقبل أن نقوم بها، نقول مادام الإنسان يعيش فى حاجات جسده وهى تتكاثر باستمرار، فهو عبد لحاجاته بعيد عن الحرية. عندما صار الإنسان أسير الدنيا وظواهرها الكاذبة فيبتعــد عن هدفــه الحريّة، فيرى نعيمه: «من خدم الدنيا لا لأجل الحقّ بل طمعا بما فيه مــن ملذّات أصبح عبيدا ذليلا لها وظلّ بعيــدا عن حريّة الحقّ» (نعيمه، فى مهب الريح، ١٩٧٢م: ٢٦)، فخادم الدنيا عبد لها بعيد عن طريق الحريّة.

العوائق الرئيسة فى سبيل الحريّة

الشهوات الخمس

يقول نعيمه: «من زمان دفنتُ خمســا من شــهواتى: شهوة الســلطان، وشهوة الغنى، وشــهوة النساء، وشهوة الشهرة، وشهوة الخلود» (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٧٦)؛ وأمّا شــهوة الخلود فلايستطيع أحد السيطرة عليها. وهذه الشهوة هى عامل النشاطات والحركات فيهم. ومن هذا المنظر هذه الشــهوة من الصفات الحســنة وحتى تستطيع أن

توصل الإنسان إلى الحريّة فى حياته فلاتعدّ من الموانع. وأمّا شهوات الأربع الباقية:

الف) شهوة السلطان

يعدّها نعيمه من الصفات الرذيلة التى تمنع الإنســان من الوصول إلى الحريّة خاصّة الذين يتنافســون ويتخاصمون للوصول إليها بطرق غير الصحيحة والوسائل الشيطانيّة كالجــدال والقتال وضروب الخداع والكذب والنفاق. فعلى الإنســان أن لايعتنى بالجاه والثروة والسلطة ومغرياتها لأنّ الذى يحرص الوصول عليها فهو إنسان مسجون.

ينتقد نعيمه جهل العالم وعدم فهمه، فالعلم يسعى بإخفاء هذا الجهل وعدم الفهم عن طريق الســلطة الواهية الكاذبة؛ الســلطة التى لاتنفكّ تبرم معاهدات الهجوم والدفاع مــع القــوّة الزائفة. والاثنتان معا تســلّمان قيادتهما إلى الرعب والخوف. هكذا ســير السلطة فى العالم, وهذا سبب دفع الجزية فى العالم بسبب الجهل، فيرفض السلطة العالمية وأصحابها لأنّهم وأعمالهم مانع فى طريق المعرفة والحريّة والعدالة. وفى النهاية نشير إلى صلة نعيمه بالسياسة كما يقول نفسه: «بينى وبين السياسة يا صاحبى مثل ما بين الزيت والماء وإذا أنا ربحت النيابة والوزارة خسرت نفسى، وهدمت فى لحظة ما بنيته فى سنين. ونفسى أعزّ لدىّ من أىّ منصب سياسى. والذى بنيته أحبّ إلى قلبى وأجمل فى عينى من أن أضحيّه فى سبيل نيابة أو وزارة.» (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ٩٠)

ب) شهوة الغنى

الحرص ينشــأ من حبّ الجســم فيدفع الإنســان نحو الحيوانيّــة لأنّ الحريص هو كالشــيطان. الحرص والطمع فى أمور الدنيا وحبّ الثروة فوق رفع الحاجات الضروريّة حاجز أمام الوصول إلى الحريّة كما يقول نعيمه: «خازن المال خزانته فارغة.» (نعيمه، كــرم على درب، ١٩٧٢م: ٤٥) المال فى رأيــه عدوّ ما من صداقته بدّ. ذلك لأنّنا خلقنا حولنا جوابات فيه المال ذا سلطان لايدانيه أىّ سلطان. فعندما يحرّر الإنسان من سجن المال والثروة فعندئذ يستطيع أن يجد الله فى نفسه ويعرفه وهذه المعرفة توصله إلى الحريّة.

نعيمــه يخاف من المــال، لأنّه خالق الحروب والنزاع، كمــا يعتقد أن الذى يغرق فى المال والثروة يفسد ضميره ويزيل صفاته الحسنة الكريمة فى ذاته. الذى يغوص فى الغنى

والثــروة يجعل المال معبوده الذى لايقبل شــريكا فى عبادتــه فهكذا كلّ ما فى العالم من الغذاء، والماء، والثوب، والدواء والنور والهواء وســائر حاجات الإنســان كلّها مخلوق المال لاشىء آخر. إنه يرى أن «المال شحيح بخيل أكثر ممّا تصوّره فى الأرض.» ويقول: «أنّــنى ما تعبدّت يوما للفلس، ولا مكّنته من قلبى وفكرى، ومن زمام حياتى. بل كنت، وما برحت، أقنع بما يأتينى منه "جزاء" عمل أعمله ولاأخجل به أقمته لها فى نهاية ذلک الطريــق. إمّــا إن تكون لى ثروة طائلة فأمر ما تمنيتــه فى أىّ بالأدران والرزايا، إلا إذا طهرّته نيّة صالحة وعمل صالح.» (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ٩١)

بالنظــر إلى هذه الرؤية لنعيمه فى المال والثروة، يعتقد: «الفقر ليس عارا, وإنما العار فى الذّل والاســتكانة للفقر. والفقر دون الذلّ والاســتكانة أعظم مدرســة فى الأرض.» (نعيمــه، ١٩٩٣م: ١٠٩) إنه يــرى «زوال النعمة بعض من دوامهــا.» (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٨٩) لأنّ النعمة والثروة عدوّ نفس الإنسان عندما لم يستحسن الإنسان استعمالهما. جدير بالإشارة إلى قناعته فى حياته الساذجة البعيدة غير المخدوعة لمظاهر الدنيــا عندما يقول: «فقدت محفظة نقــودى, فقال لى قائل: لعلّها هى التى فقدتک حالما اهتدت إلى من هو أحق منکَ.» (المصدر نفسه: ١١٦) «حيث يكون كنزک يكون قلبک. لذلک إذا شــئتَ أن لايذهب قلبــک بذهاب كنزک فلاتكنز لک مــا هو عرضة للتلّف والضياع: «لاتكنزوا لأنفســكم كنوزا فى الأرض حيث يرعى الســوس والعثّ وينقب اللصوص فيسرقون. بل اكنزوا لأنفسكم كنوزا فى السماء حيث لايرعى السوس والعثّ ولاينقب اللصوص فيسرقوا.» (نعيمه، من وحى المسيح، ١٩٧٢م: ٨٧)

فى خاتمــه هذا البحث نقدّم الــكلام القيمّ الذى ورد فى نهج البلاغة فى رفض ظواهر الدنيــا الزائلة: «لاتجزعوا مِن ضَرّائها وبؤســها، فإنّ عزّها وفخرهــا إلى انقطاع، وإنّ زينتها ونعيمها إلى زوالٍ، وضرّاءها وبوســها إلى نفــاد، وكلُّ مدة فيها إلى انتهاء، وكلُّ حَــىّ فيها إلى فناء.» (الإمام على (ع)، خ٩٩: ١٦٥) فملذّات الدنيا ليســت إلا ظواهر خادعة فيجب علينا نبتعدها ولانجعل أنفسنا أسيرها.

ج) شهوة النساء

هذه الشــهوة ميل فطرى فى وجود الإنســان وعندما تحقّق فى إطار العرف والشرف

شـــىء جيّد، أما عندما لايتوجّه الإنسان بهذا الإطار ويهدف شهوة النساء بقصد المتعة فعندئذٍ هو أسيرها ويكون فى قيد أميال نفسه الرذيلة فينحرف عن طريق الحريّة. «وأمّا الشـــهوة الجنســـية فقد تحوّلت بالموت إلى شـــىء جميل جدّا ــإلى زنبقة بيضاء، هيفاء» يرمـــز بها نعيمه إلـــى العفّة (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ٨٩)، فالعفة هى أســـاس الحبّ ودرع لها، والخضوع أمام هذه الشـــهوة يقتل الحبّ العفيف. فى رأيه العلاقات الجنســـيه مصدر المشكلات والأزمات فى العالم. إنه يقترح بالرجل أن يعرف قلب المرأة وقيمتها، فعندئذٍ يســـتطيع أن يعرف قلبه ويقول له: «الرجل الذى لايحاســـب نفســـه أدّق الحســـاب عن علاقاته بالمرأة تحاسبه الحياة أقسى الحســـاب عن استهتاره بمقدّساتها، وتدنيسه الإناء الطاهر الذى اختارته مســـتودعا ومرخما لبذارها.» (نعيمه، ج١، ١٩٧١م: ٢٧٣) أعنف الشـــهوات عنده هو شهوة النســـاء لأنّ الذى تسيطر هذه الشهوة السوداء على قلبه فهو ليس بحرّ؛ لأن قلبه وروحه فى أسر هذه الرذيلة. إنه يعتقد أن الزواج «ليس تزاوج أفكار وقلـــوب فقط. بل تزاوج أجســـاد كذلك. وأقرب الزواج إلى الســـعادة ما ارتكز على تجاذب فكرىّ وقلبىّ وجســـدىّ، لاعلى واحد من هذه فقـــط...» (نعيمه، ج٢، ١٩٧١م: ٣١٧) فعندما يخلو قلب الإنسان من هذه الشهوة، فهو يستطيع أن يسير فى طريق الحريّة.

د) شهوة الشهرة

نعيمه لم يكن رجلا سياسيا أو اقتصاديا بل كان أديبا كاتبا عاش حياة ساذجة بعيدة عن الإكثار فى حاجات العيش وإن طلب الشهرة فى حياته فهو فى مجال حياته الأدبيّة, ولكن هذه الحياة ليســـت بمجرّد كســـب الشهرة فقط، كما يقول نفسه: «أمّا شهوة الشهرة فقـــد كان لها فى أوّل عهدى بالكتابة مركز الموجّه الأوّل والقائد الأعلى أقرانى يلازمنى بشكل عنيف، فلا أجرؤ على البوح به لأحد فى الناصرة. وتبلور وتركّز فى السنوات التى أمضيتها طالبا فى روسيّا. ... ولم يبقَ شكّ عندى أن الميدان الذى كان يغرينى أن أكسب فيه شهرتى هو ميدان الأدب وحده. (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ٩١)

إن الشـــهرة عندما تُطلَب طلبا كثيرا تتبدّل مانعا فى سبيل حياة الإنسان لأنّها تدفعه نحو الأســـر فى ســـجنها. فيذهب أن الشهرة شىء له زوال. فليست الشهرة شيئا أن يحبّها

الإنســان حبّــا كثيرا؛ لأنّه يمكن زوالهــا فى كل دقيقة وكل ثانية. يقــول نعيمه فى كلامه القصــار: «الكبرياء والذلّ توأمان متلاصقان» (نعيمــه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٢٠)، فالذى يغرق فى بحر الشــهرة دون شــكّ يُصــاب بأمواج الغرور والتكــبرّ وفى النهاية يصاب بالذلة والهوان وموت الروح بيد هذه الشــهرة القاتلة. والذى كان أســيرا فى يد هذه الشهوات ليس إنسانا حرّا لأنّه بعيد عن الفضائل الأخلاقيّة، كما يقول أحمد أمين: إن شــهوات النفس غير متناهية فإذا أعطاها المراد من شــهوات وقتها فيصير الإنسان أسير الشهوات لاتنقضى وعبد هوى لاينتهى، ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح، ولم يوجد فيه فضل. (أمين، ١٩٦٩م: ٢١٣ـ٢١٢) فأفضل الطريق فى حياة الإنسان أن يهتم بهذه الشــهوات فى حدود المعقول وفى إطار الأخلاق. ومحاربته أهواء النفس تؤدى إلى اقترابه من الســلام والأمنية. وفى نهاية هذا البحث نشير إلى هذا الكلام: «ضابط نفسه كراكب الفرس الذلول يقصد حيث أراد فيوجهها كما يشاء، ومن لم يضبط نفسه كراكب الصعبة، لايسيِّــرها كما يهوى، ولايصل إلى غرضه بالســير كما تهوى؛ فى ضبط النفس حفظ الصحة وطمأنينة العقل والســعادة والحرية وسلطان كسلطان القائد على جنده أو الربان الماهر على سفينته.» (أمين، ١٩٦٩م: ٢١٩)

وبعد التطرق إلى هذه الشهوات نذكر بعض الصفات الرذيلة التى تعرقل الإنسان فى سبيل وصوله إلى ذروة الحريّة:

الحسد

الحسد هو الصفة السيّئة التى يغطّى قلب الإنسان ويبعده عن الصفاء والصداقة كما روى عن النبى (ص): "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب". يعتقد نعيمه هذه الرذيلة الأخلاقية بداية للرذائل الأخرى كالغضب والغرور والظلم والكثير من الصفات السيّئة التى أشدّها الغضب. وأما كلامه القيمّ حول هذه الرذيلة فإن «للحسود ألف عين. ولكن فى كلّ عين ألف جمرة» (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٤١)، فهو ينهى الحســود عن الحســد؛ لأنّه النار المشــتعلة التى تحترق صاحبه قبل أىّ شخص. هذه الرذيلة مانع فى سبيل الحريّة والمعرفة والإيمان الحقيقى وسبب الجدال بين الناس. إنه فى الحقيقة يمنع الإنسان أن يكون حرّا لأنّه فى قيد حسده الذى يؤذية؛ فلايستطيع أن يكون حرّا.

الجهل

الجهـل هو عدوّ قوىّ أمام الحريّة، «حيـث يكون الجهل لايمكن للحريّة أن تكون.» (نعيمه، الآباء والبنون، ١٩٧٢م: ١٣١) كما أشـرنا سابقا أن المعرفة طريق الوصول إلى الحريّة ولكن عندما لايعرف الإنسـان نفسـه، لن يعرف خالقـه الله وعندئذ هذا الجهل مانع أمام سيره فى سبيل الحريّة وعندما يحارب الإنسان هذا الجهل ويعرف الله يستطيع أن يتحـرّر. الجهـل ـ لو عرفه صاحبه. هـو الطريق إلى المعرفة، فالجهـل مانع الحريّة ومحاربته طريـق الوصول إلى الحريّة. يعتد نعيمه الجهل رذيلة تثير نار الغضب والتكبّر والغـرور، كما قال الله تعالى: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَـدَّكَ لِلناسِ وَلا تَمْشَ فِي الأَرْضِ مَرَحاً اِنَّ اللهَ لايُحِـب كُلَّ مُختـالٍ فَخوُرٍ﴾ (لقمـان: ١٨) فالتكبّر من الصفات السـيئة التى يهلك الإنسـان ويظلم قلبه كما نرى هذا الأثر السـوء منذ بداية خلق الإنسـان عندما تكبّر إبليس ولم يسجد أمام آدم فأصاب بدعاء الناس عليه، كما قال الله: ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ إسْجُدُوا لِآدَمُ فَسَجَدُوا إلّا اِبْليسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الكافِرينَ﴾ (البقرة: ٣٤) فعلى الإنسان أن يهرب من الجهل لا من الجاهل فيذهب نعيمه أمام الجاهل مذهب التساهل ويوصى الإنسـان بمداراة مع الجاهل. عندما يقـول: «لاتهربوا من الجاهل واهربوا من الجهل. لأنّكم عندما تهربون من الجاهل لاتهربون إلا من أنفسكم. أما هربكم من الجهل فهـو اقتراب من المعرفة.» (نعيمه، زاد المعـاد، ١٩٧٢م: ٥٩) الجهل عامل إثارة النزاع والحرب، والاختلاف والظلم، بينما دون الجهل، يعيش الإنسان فى عالم السّلم والتفاهم والصداقة، إنه يرى أن «قلبا جاهلا لقلب مزدوج. والقلب المزدوج يخلق عالما مزدوجا. والعالم المزدوج يولّد أبدا نزاعا وحروبا. بينما القلب الفاهم قلب موحّد. والقلب الموحّد يخلـق عالمـا موحّدا ـ والعالم الموحّد عالم سـلم أبدى. إذ لابـدّ للحرب من خصمين.» (نعيمـه، ١٩٧٥م: ٢٣٣ـ٢٣٢)، فالجهـل عامل القلب المزدوج غـير الموحّد الذى يقود الإنسان إلى شفير الهلاک. الذى يكون جاهلا سيكون أسير القلق والخوف والنزاع وفى النهاية الموت, وهذه كلّها ليست إلّا ثمار الجهل.

إن الجهل منشـأ الكثير من الأمراض الاجتماعية، واهتمام الكثير من الدول زوال هذه الأزمة. يقترح نعيمه على الإنسـان بالخلاص من الجهل اقتراحا مباشـرا صريحا

وهو: «يــا ويل الناس مــن التقاليد وتعاويذ التقاليــد!»، و«إنّنى أعيذكــم من التقاليد وســلطانها.» (نعيمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ١٣٠و١٢٨) فهو يُعَدّ التقاليد والسنن الماضية ســدا منيعا أمام محاولة الإنســان للوصول إلى المعرفة والحريّة؛ لأنّه يرى هذه التقاليد عامل أساسى يؤدى إلى الجهل المطبق, ويدعو الإنسان فى هذا المجال إلى التجديد. كما يدعوه إلى الحرب مع أعداء نفســه وفى رأيه أبغض هؤلاء الأعداء هو الجهل. الإنسان الجاهل لايســتطيع التمييز بين الحقّ والباطل وبين الصدق والكذب, وهكذا ســيبقى فى جهلــه إلا عندما يتحرّر من قيــد التعصّبات والتقاليد العمياء, ويرى ليس فقر أعظم من الجهل وعدم المعرفة والفهم. وفى نهاية هذا نشير إلى كلام نعيمه حيث يقول إنه «ما من مصيبة إلا الجهل.» (نعيمه، مذكرات الأرقش، ١٩٧١م: ٤٧) فالجهل هو عامل الأزمات والمصائب فى حياة الإنسان.

الظلم

يدعــو نعيمه الإنســان إلى البعد عن ظلــم الظالمين. وينزع نزعة التســامح فى هذا المجال: «لاتكرهوا الظالم، واكرهوا الظلم. لأنّكم إن كرهتم الظالم كنتم ظالمين مثله. وإن أحببتموه عرفتم العــدل ورددتم الظالم إليه» (نعيمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ٥٩)، ولكن فى رأينا ليست المداراة مع الظالم بجدير؛ لأنّها توفّر الطريق لظلمه. ويتحدّث عن الظلم الذى ارتكبه الإنســان فى الحروب, ويرى ليســت هذه الحروب ظالمة بل الظالم هو الإنسان. الظلم يظلم قلب الإنســان, ويســود روحه بحيث لايجد طريقا إلى الحريّة؛ لأنّه يبقى فى سواد ظلمه. وعندما يخيّم الجور على الإنسان وأعماله فهو قاسى القلب ولايعرف المحبّة والعدالة فهكذا هو أسير بيد ظلمه وليس حرا.

الكذب والخيانة

أشــد ما يؤلم روح نعيمه ويعذّبه هو الكذب وعدم الصداقة كما يقول نفسه: «يؤلمنى أشد الألم أن ينزلق لسانى روحى، إلى الكذب.» (نعيمه، اليوم الأخير، ١٩٧٢م: ٩) كما يقول: «الكــذب أحبولة لاتصطاد إلا الكذوب.» (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٣٣) فكما يقترح الأســتاذ أحمد أمين هناك طريقــة واحدة للصدق وعدم الكذب وهو: «أن

يقول الإنسان الحق، كل الحق، لا لشيء غير الحق.» (أمين، ١٩٦٩م: ١٩٩) وعندما يكذب الإنسان غيره كأصدقائه وأهله فهو يكذب نفسه أيضا، فعلينا أن نهرب من هذه الصفة السيئة. فأفضل الفضائل وأحسن الصفات هو الصداقة والبعد عن الكذب.

وأما الخيانة فهى جهيض الأمانة. (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٧٢) فالكذب والخيانة صفتان رذيلتان تبتعدان روح الصدق عن نفس الإنسان وتصعبان سيره نحو الحريّة.

وأمّا بعض نصائح نعيمه حول البُعد عن هذه الصفات الرذيلة:

«لاتحتقروا أحدا من الناس. فخير لكم أن تكونوا محتقَرين من جميع الناس من أن تحتقروا إنسانا واحدا. لأنّكم إذا احتقرتم أى إنسان احتقرتم الإله المشمول فيه. وإذا احتقرتم الإله المشمول فى أى إنسان فكأنّكم احتقرتموه فى نفوسكم. وإن أنتم احتقرتم الإله المشمول فيكم ـوهو دليلكم إلى الميناء، إلى الإله الشاملـ فكيف ترجون أن تبلغوا ميناءكم؟» (نعيمه، ١٩٧٥م: ٣٠٣)

إنه ينهى الإنسان عن البغض قائلا: «وأنتم إن تخلّصتم من ضرس مسوّس باقتلاعه فكيف تقتلعون قلبا نخره سوس الحسد أو البغضاء أو الخيبة؟» (نعيمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ٦٧) يؤيد نعيمه ضربا من البغض وهو البغض على ما فى الناس من ضعف وإثم. فعلى الإنسان أن ينزع ثوب البغضاء لأنها «تفصلكم عن الإنسان أو الشيء الذى تبغضون. ومادمتم منفصلين عن أى شيء أو أى إنسان بقيتم منفصلين عن الله الكائن فى ذلك الشيء وذلك الإنسان» (المصدر نفسه: ١٣٩)، فالبغض يبعد الإنسان عن الله لأن الذى يسود قلبه بالبغض لايعرف الله.

إنه يرى كلّ هذه الرذائل «عقالات للروح وحجارة رحى فى عنقه. والله ليس فى شيء منها. أمّا السبيل إلى الله فسبيل التعرّى» (المصدر نفسه: ١٣٩)؛ فعلى الإنسان أن يهرب من الشيء الذى ليس فيه لون من الله.

القلب المطمئن يجد طريقه ويسلكها دون الرعب، ولكن القلب الخائف لايستطيع الشعور بالحريّة لأنّه فى قيد خوفه. وأمّا نكبات الحياة فى رأى نعيمه فهى: «أن نتنفس الهواء لنحيا ثم أن ننفث فى الهواء، سموم أحقادنا وأحسادنا وأطماعنا لنميت ونموت.»

(المصــدر نفســه: ٩٢ـ٩١)؛ كما يقول: «هى النكبة أن تســقينا الأرض من عصير قلبها الطاهر فنسقيها من دماء قلوبنا الممزّقة بشفار بغضائنا وأهوائنا.» (المصدر نفسه: ٩٢)

إنه بعد هذه النصائح القيّمة يتحسّــر على إنسان اليوم، فيقول: «وخطيئة هو اهتمام الإنســان بحاجاته الدنيويّــة أكثر من اهتمامه بحاجاته الروحيّــة. ...وخطيئة هو الرياء والدّجــل والتظاهــر بما ليس فى القلب وكأنّه من القلــب فى الصميم.» (نعيمه، من وحى المسيح، ١٩٧٢م: ٧٢ـ٧١)

إنه يعدّ هذه الموانع فى ســبيل الحريّة من الأســباب الرئيسية للحروب أيضا: ومثلما للحــروب الدامية أســلحتها الفتّاكة كذلک للحروب غير الدامية أســلحتها التى تفتک بالأجســاد والأرواح معا، ولكن بطريقة بطيئة وغير منظــورة. ففعلها هو فعل الجراثيم الخبيثة فى الخليّة الحيّة. من هذه الأسلحة: البغض، والحقد، والفسق، والحسد، والخداع، والنّفاق، والدهاء، والطمع، والجشــع، وحبّ المجد والجاه والســلطان والمال.» (المصدر نفســه: ٢٥٨) الذى له نفس كبيرة يســير فى سبيل العلّو والنبل والصفات السامية: «من كان ذا نفــس كبــيرة كان أنبل من أن يغتاب أحدا من النــاس أو أن ينمّ على أحد من الناس. فالغيبة والنميمة أقذار لايستطيب التغلغل فى أجوافها النتّنة والانتشاء بروائحها الكريهــة إلا صغار النفــوس. ...ومن كان ذا نفس كبيرة كان أبعــد الناس عن التبجّح. والذى نفســه كبيرة لايكبر على أىّ إنســان، ولايذلّ لأىّ إنســان. فهو يعلم أن كرامته لاتُصــان إلا إذا هــو صان كرامة الغير، وإن كرامة تقوم علــى مذلّة الغير لمذَلّة فى ثوب الكرامة وشــرفه أرفع من أن يكون ذلک الشــرف الذى لايسلم من الأذى حتى يراق علــى جوانبه الدّم. (نعيمــه، دُروب، ١٩٧١م: ٧٩ـ٧٨) فيرى جمــال الحياة فى الصدق والعفّة لا فى الكذب والفسق والتكبّر.

يعتقد نعيمه بأن الذى فى قلبه صفة رذيلة كالحقد والفســق وحبّ المال والســلطان والكذب والرياء، فله روح فقير؛ كما يقول:

كل منافق أو سارق أو فاسق, فقير.

كل غضوب أو حقود أو ناقم, فقير.

كل حسود أو نّمام أو مُراء, فقير.

كل مزهوّ بمال أو جمال أو سلطان, فقير.
كل مغرور بأصله أو بفصله أو بعمله, فقير.
كل معتزّ بلقب أو وسام أو منصب, فقير.
كل من كان ذئبا فى جلد حَمل, فقير.
كل من أكل خبزه بعرق جبين غير, فقير.
كل من أذلّ جاره ليعتزّ، وأجاعه ليشبع, فقير.
كل من ركب هواه وجهل مبتداه ومنتهاه, فقير. (نعيمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٢٠٤)

فعندما يسير الإنسان فى سبيل اللّه سيراً خالصاً فطبيعىّ أن يبتعد عن هذه الموانع والصفات الرذيلة. فعندما الإنسان يصلح نفسه ويسير فى الطريق الصحيح يصل إلى قمّة الحريّة التى بذرها فى ذاته وعندئذٍ يستطيع إصلاح مجتمعه، فالمجتمع الصالح قائم على الأفراد الصالحين، و«الإنسان حر بالطبع، وحريته أعظم ما يملك. كل ما من شأنه أن يشلها هو إذن جائر. فإذا أردنا إقامة مجتمع عادل، وجب علينا اكتشاف شكل ترابط يتميز بصفتين: الأولى أن لن يحمى كل إنسان، الثانية أن لايعيق حرية أى فرد. (كريسون، ١٩٦٢م: ٢٤٨_٢٤٧) على الإنسان الذى يهدف الحريّة أن يبدأ طريقه بنفسه، ويطهّر قلبه من الآفات البشرية كالحسد والبغض والظلم والرياء والحقد والكبرياء. وبعد أن تغلب على تلك الآفات فتحلّ محلّها الفضائل والحسنات التى تؤدى إلى الرجاء والفهم والإيمان وفى النهاية تسهّل له طريق المعرفة.

النتيجة

قد دعا نعيمه إلى بناء المدينة الفاضلة التى من أهمّ أركانها الحريّة تحت سيطرة القيمّ الأخلاقية السامية. وفى رأيه أقدس الواجبات فى حياة الإنسان هو المجاهدة فى سبيل حريّة النفس.

إنه فى نزعته المثالية يتحدث عن الحريّة بمعناها الروحى المطلق بحيث يتصل كلامه عن الحريّة بكلامه على المعرفة، والإيمان والوعى والإرادة ومادامت هذه الحرية وسيلة يمكن بها للخلاص. هذه الحريّة التى يقصدها نعيمه ستحقق عن طريق معرفة الإنسان نفسه وعن طريق الإيمان. وبين المعرفة والحريّة صلة وثيقة بحيث هما لاينفصلان، كما

الإيمان سلاح قوىّ فى كسب الحريّة الروحية.

وأما المعرفة فهى غاية حياة الإنسان، وقصده منها هو معرفة النفس، ومعرفة الله، ومن يصل إليها تحقق له الحريّة المثلى. إنه يرى حرية الإنسان فى نفسه لا فى شىء آخر أو مكان آخر. وعندما يكون الإنسان طاهر القلب والفكر فعندئذ له نفس حر يستطيع السيطرة على أفكاره وطموحاته.

إن الحريّة هبة إلهيّة قدّمت للبشر، ولايقدر أن يسلبها أحد, والجدير بالإنسان أن يسعى فى صيانتها. والثورة على الركود والتقاليد والقيود الأرضية هى طريق النجاة والوصول إليها.

إن شهوة المنزلة الاجتماعية وشهوة الغنى وشهوة النساء وشهوة الشهرة من أهم موانع الإنسان فى الوصول إلى الحريّة، أمّا شهوة الخلود فيعدّها شى مُجيد.

إنه يدعو الإنسان إلى الابتعاد عن الحسد والبغض والخوف والطمع وحبّ الدنيا؛ لأنها أعداؤه فى سبيل الحريّة. حيث يكون الجهل ليس للحريّة مجال فعلى طالبها أن يسعى نحو المعرفة لقَتلِ الجهل وعندما نهتمّ بأدب نعيمه فنراه منذ عرف الكتابة حتى نهاية عمره خدم المجتمع البشرى فى سبيل الفضائل الأخلاقية والنهى عن الرذائل الأخلاقيّة.

يمكن القول إنّه وصل فى حياته إلى الحريّة الحقيقية؛ لأنّه كثيرا ما ينادى بالقيم الأخلاقية وينهى عن الرذائل التى هى موانع الوصول إلى الحريّة وعندما ندرس شخصية هذا الأديب الكبير، يثبت لنا هذه الحريّة اثباتا.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

أمين، أحمد. (١٩٦٩م). الأخلاق. بيروت: دار الكتاب العربى.

خفاجى، محمّد عبدالمنعم. (١٩٨٦م). قصة الأدب المهجرى. بيروت: دارالكتاب اللبنانى.

زكا، هدى فؤاد. (١٩٦٢م). «المناحى الفكرية فى أدب ميخائيل نعيمه» أطروحه الماجستير. الجامعة الأمريكية. بيروت.

الفاخورى، حنا. (١٩٨٦م). الجامع فى تاريخ الأدب العربى. بيروت: دار الجيل.

كريّســون، اندريه. (١٩٦٢م). تيارات الفكر الفلســفى من القرون الوسطى حتى العصر الحديث. ترجمة رضا، نهاد. الطبعة الاولى. بيروت: منشورات عُويدات.

المطهرى، مرتضى. (١٤٠٤ق). الإنسان والقدر. ترجمة التسخيرى، محمّد على. طهران: مركز إعلام الذكرى الخامسة لانتصار الثورة الإسلامى فى ايران.

مطهرى، مرتضى. (١٣٨٤ش). آزادى معنوى. ط٣٣. انتشارات صدرا.

نعيمه، ميخائيل. (١٩٧٢م). كرم على درب. ط٦. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والن

ـــــــــــــ (١٩٧٣م). صوت العالم. الطبعة السادسة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). زاد المعاد. الطبعة السابعة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٣م). النور والديجور. الطبعة الخامســة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). فى مهب الريح. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). الآباء والبنون. الطبعة السادســة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). اليوم الأخير. الطبعة الرابعة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). فى الغربال الجديد. الطبعة الخامســة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧١م). دروب. الطبعة الخامسة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٥م). مِرداد. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧١م). ســبعون فى ثلاث مجلــدات. الطبعة الرابعة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٤م). جبران خليل جبران. الطبعة السابعة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). من وحى المســيح. الطبعة الخامســة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٩٣م). أبوبطّة. الطبعة العاشرة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧١م). مذكرات الارقش. الطبعة الخامســة. بيروت: مؤسســة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٣م). أحاديث مع الصحافة. بيروت: أ. بدران وشركاه.

ـــــــــــــ (١٩٧٣م). يا ابن آدم. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة نوفل.